

الآيات القرآنية في أبيات إقبال الشعرية — اقتباساً واستشهاداً

☆ الحافظ عطاء المصطفى

Abstract

Iqbal reconstructed the religious and political thought in Islam by his Qur'anic poetry and criticized the false imagination to the extent of exaggerated extreme. The article strives to establish that though Iqbal was influenced by religious and political notion of his successors as well as the Western metaphysicians, he held a position entirely distinct from all of them. His contribution to the treasure house of Qur'anic poetry is therefore, unique and substantial.

لأنكاد نعرف مصلحا إسلاميا بلغ مبلغ إقبال في الاستشهاد بمحكم آياته ومما قوى باعته على ذلك أنه نظم معظم كتبه بالفارسية أخذا بما درج عليه الفرس القدماء من اتخاذ الشعر أسلوب تعبير لهم عن دقائق المعنى في التصوف خصوصا ، لأن الشعر أعلق بالحفظ وأوقع في النفس ، وكان ذلك من تقاليدهم الأدبية العلمية في وقت معا ، كما ألفوا أن يضمّنوا أشعارهم آيات قرآنية مستشهدون بها أو يشيرون إليها للتمثيل والتخييل وأن هؤلاء الشعراء كانوا من المتصوفة ، وإن دأبهم في تطوير آيات الكتاب لمذهبهم الصوفي وطالما استشهدوا بها فصرفوها عن معانيها ولا غرو فهم يستملون أحكام مذهبهم من القرآن والحديث ، ولكن منهم من وسع المجال وهام في الخيال فحمل لفظ القرآن مالا يحتمل من معنى ، وأعرض عن الصريح الظاهر .

☆ محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها ، الجامعة الكلية الحكومية بفيصل آباد

وإقبال في أخذه عنهم التعبير بالشعر وتضمين شعره آيات قرآنية ، لا ينهج نهجهم في التأويل ، وإنما يدرك المعاني من ظاهر ألفاظها وما ذاك إلا لأنه كمصلح ديني أراد لقوله أن يستقيم في الإفهام لا أن يطمسه اللبس والغموض بحيث لا يعضل ولا يلتوى ولا يذهب الناظر مذاهب شتى في إدراك المستفاد منه، خاصة أنه لم ينظم في التصوف فما كان ثمة من داع له إلى ما دعوا إليه وكانت له عنه مندوحة .

وإقبال مشبه في ذلك بعض الشبه محمد عاكف شاعر الترك المعروف بشاعر الإسلام الذي أخذ عن الفرس والترك القدماء تضمين شعره آى الذكر الحكيم وإن اختلف عن إقبال في أنه لم ينظم كتباً بتمامها ، كما يقيم الفارق بين إقبال وشعراء الصوفية من الفرس أنهم لم يكونوا على نية الإصلاح بالدين على المعلوم من نية إقبال ومحمد عاكف .

ونحن منالفتة إلى إقبال في نوعية ثقافته ، فنقول إنه ولد عام ١٨٧٣ . وتلقى العلم على أبيه في طفولته أسوة بفتيان عصره ثم أدخل مكتباً يتعلم فيه القرآن ، وغادر لمكتب إلى مدرسته البعثة الأسكونية في مسقط رأسه سيالكوت ، ولكن سرعان ما جلس مجلس التلميذ من عالمين كان لهما بعيد الأثر في هدايته إلى تلك الطريق التي سلكها في المستقبل من أيامه .

أما أولهما فسيد مير حسن وثانتهما المستشرق الانجليزي توماس آرنولد وشيخه الأول كان واسع العلم بأشتات العلوم الإسلامية متضلعا من الفارسية وآدابها والثاني صاحب الفضل عليه في توجيهه إلى النظر في الفلسفة وترغيبه في أخذها عن علماء الغرب وأدركه حرفة الأدب فنظم الشعر في المتعارف من فنونه وذهب له في الشعر صيت ، ثم ارتحل إلى الغرب طلباً للعلم ، عام ١٩٠٥ ، وعاد إلى بلاده بعد أعوام وقد وهنت في قرض الشعر رغبته بينما قويت في التعرف إلى مسائل الدين وقضايا الفكر وأخذ الأسف لماحق ببلاد

المسلمين أفند من ظلم الحاكمين وتسليط المستعمرين ، ورأى الإصلاح لحال المسلمين إلا برجعهم إلى دينهم واستمدادهم من أحكامه ما يصلح به معاشهم ومعادهم ، وصح منه العزم على أن يكون مصلح أمورهم بدينهم ، وإن أضعف التعبير عن الدين والفلسفة بالشعر من شاعريته الغنائية . (١)

فنقف منه إزاء ذلك وقفنا من المصلح الديني الإسلامي المعبر عن فكره بالشعر والتمكيد في دعوته الإصلاحية إلى الكتاب المبين يستخرج منه الأحكام ويصحح به ما يجا في عن الحق والصواب من فكر وقول وعمل ، ولا يحيد عن آية طرفة عين مستمدا منها قوام دعوته تارة ومؤيداً بها دعواه تارة أخرى ، ونحن لأنكاد ننقل صفحة من صفحات تأليفه وهي أحد عشر مؤلفاً ، دون أن نقع على آية أوجز منها في شعره .

وبعد أن آب إقبال من بلاد الغرب نهج له منهجا آخر في تفكيره وتعبيره ، فكف عن قول الشعر في المألوف من فنونه ليقوله في خاص من غرض هو أبعد ما يكون عن أغراض دأب الشعراء المسلمين على القول فيها ، وقصره على التعبير به عن رأيه في إصلاح أمور أهل القبلة خصوصا بفتح البصر على أحكام دينهم وحثهم على فهم قرآنهم ، ولكن شريطة عدم تحويل مفهوم صحيح إلى مفهوم غير صحيح والتجافي عما يفتقد الصواب من أقوال .

وبذلك يقيد بقيود لم يستطع منها انطلاقاً إلى مألوفه في أعوام مضت ، وهو يعلن هذا مما انعقد عزمه بمثل قوله :

بگواز من نواخوان عرب را بهای کم نهادم لعل لب را
ازان نوری که از قرآن گرفتم سحر کردم صلوسی سالیه شب را (٢)
والإيماء في قوله إلى أكثر من حقيقة ، لأنه في اتجاهه بالخطاب إلى شاعر العرب يورد على الخاطر ذلك الشاعر العربي الذي شغل عن قول الشعر بتدبير القرآن ، ويذكر صلوفه عن القول في رفاق المعاني ، لأنه في غنية عنها بنور القرآن ،

أى أنه انكب بكل ما فى عزمه من قوة و كل ما فى طاقته من سعة على قبس الهداية من كتاب الله ليحمل منه شعاعا هاديا لأولئك الذين ضربوا فى تيهه تحت ليل طويل .
ولا علينا إذا سميّنا إقبالا شاعر القرآن بمعنى أنه حمل القرآن فى عقله المفكر وقلبه المؤمن ، فضمن شعره ما شاء الله أن يضمن من آيات ليكون فى دعوته الإصلاحية على الحجة التى لا ريب فيها ، ويفسرهما بما كان أولو الألباب فى غفلة منه .

وهذه الأبيات يبدو فيها مذهبه فى الاستشهاد بالآى على نحو خاص لا نعهد له لدى مصلح إسلامى ممن تناولها بالدرس نهجهم فى الإصلاح اللهم إلا إذا استثنينا الشاعر التركى محمد عاكف ، وإن كان أقل منا تضمينا للقرآن فى شعره .
آيه تسخير اندرشان كيست اين سپهر نيلگون حيران كيست
رازدان (علم الأسماء) كه بود مست أن ساقى وآن صهبا كه بود
اى ترا تيرى كه ماراسينه سفت حرف (ادعونى) كه گفت و باكه گفت (٣)
ومثل هذا من قوله جاعلنا فى حتمية تناوله بشىء من توضيح فالمراد من آية التسخير قوله تعالى فى سورة لقمان :

﴿ ألم ترروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض

وأسبع عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ (٤)

وهو يريد ليذكر الإنسان بما خصه الله به من نعمه ليعرف فضله عليه ويشكره بتقواه . وقوله (علم الأسماء) من قوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (٥)

أى أسماء جميع المسميات ، فأثره بمالم يؤثر به سواه من خلقه . ويريد إقبال إقامة الدليل على أن الله أكرم الإنسان بمالم يكرم به غيره من مخلوقاته ، فعليه أن يعرف لنفسه علو منزلته فى الكون فيعمل على صون كرامته ويأبى أن يكون مستضعفا ، أما ذكره قوله تعالى (ادعونى)

فما جاء في سورة غافر :

﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ (٦)

أى اعبدوني أتبكم ، فهو يذكر من يعبد الله بأن له عنده حسن الثواب وسوف يجازى بالحسنى . إقبال في تجديده للفكر المينى الإسلامى إنما يجده وفق ما جاء فى التنزيل الحكيم والاستشهاد بآياته على أن تفهم حق فهمها ، وضرورة العمل بها فى رياضة الحياة وتوجيه فكر المسلمين توجيهاً رشيداً .

لقد تعرض لتفسير القرآن بعض من أورد نالهم ذكراً من المصلحين الإسلاميين ، فلمحمد عبده تفسير لسورة العصر وآخر لسورة الفاتحة وهما بين دفتى كتاب ، ويشبهه أبو الأعلى المودودى فى تفسير له خاص بسورة النور ، ولأبى الكلام آزاد وتفسير عام للقرآن إلا أنه غير تام ، وفسر محمد عاكف سوراً ونشر تفسيره فى الصحافة تباعاً . وكان المراد من تفسيرهم بيان الأحكام على الخصوص ، ولا نعرف لإقبال تفسيراً قرآنياً ، فهو بذلك مختلف عنهم إلا أن له تفسيراً لسورة الإخلاص يؤلف الفصل الأخير من كتاب له بعنوان الأسرار والرموز ويجعل تفسيره هنا تحت عنوانين يتخذهما من آياتها ، وصنعه ينفرد به عن كل من فسروا ، لأنه يعبر شعراً كما أنه لا يركن إلى إيضاح معنى الآيات بما يترك من معنى التوضيح ، بل ينظر فى الآية مستوحياً منها معانى وخواطر ترد على فكره ، متنقلاً بين صورة وفكرة وحقيقة عامة تتولد منها فى ذهنه حقيقة خاصة ، وهو فى هذا يشبه الصوفية بعض الشئ ولكن مع فارق هو أنه لم يصرف كلمة فى السورة عن الصحيح من معناها ، ففى تفسير كلمة (أحد) يبادر إلى أن التعريف بمذهبه فى الماتية أو الفردية فيدعو المسلمين إلى أن يستمسكوا بذاتيتهم ، كما يذكر بذلك وحدة أهل لا إله إلا الله فى اعتصامهم بحبل جميعاً ، فالتوحيد لله يتبعه عنده توحيد إنسانى ، على ما بين التوحيديين من فوارق .

أما فى تفسيره للصمد وهو الذى يصمد إليه العباد فى حوائجهم ،

فلا يغرى للكلمة بالشرح ، ولكنه يستمد منها ما يتوارد على فكره وخياله بعد وقوفه على معناها ، فيتجه بكلام طويل إلى المسلم مذكرا إياه بأنه مادام قد عرف كنه الصمد ، فعليه أن ينقطع بقلبه و عقله عن تهافته على حطام دنياه ، وأن تعف نفسه عن سؤال أحد سوى الله ، وإن كانت له من حاجة فلا سألن قضاها له إلا الله أكرم الكرماء .

ثم يستخرج معنى من معنى يورد الشاهد تلو الشاهد ، وبصمد إلى التمثيل فينزه نصيحه عن أن يكون وحلا يداس بالقدم ويحب له أن يكون إلا كسير الذى يتحول بمسه المعدن الخسيس إلى معدن نفيس ، ويتجاوز المجاز إلى الحقيقة ، فيسوق خبرا طويلا للإمام مالك مع الرشيد ، ليضرب المثل الأروع لإبائ الإمام وشممه ، وامتناعه من قبول دعوة الخلفية إليه أو قبوله الهدية منه إلا على شرط .

فالإمام مالك يقبل هدية الرشيد على أنها إنصاف أهل المروءة وعون على الحيلولة بينهم وبين مالا يليق بأمثلهم ، لقد قبل مالك عطاء الرشيد ولكن على مضمض . (٧)

وهكذا يخوض بنا إقبال فى حقائق التاريخ مؤيدا له رأيا فيما ينبغي أن تكون عليه أخلاقية المسلم . وقد استمد من القرآن معنى كلمة ، إلا أنه استسلم لما أوردته عليه من معان بعيدة عن الأصل من معناها ، إلا أنها قريبة مما يريد به تبشير اوله إصلاحا وعليه حضا ، معتمدا على آيات الكتاب المبين على حال من الحال وبكيفية لا عهد لنا بمثلها عند من عرفنا من المصلحين . وكأنا أراد إقبال لصاحب الفكر الإسلامى أن يظوره ويجدده مستندا إلى خلفية من القرآن ، ولا بأس من التنقل بين الواقع والخيال ، ورب حقيقة فسرت بالمجاز ، ولكن على ألا يضيع المتن فى الشرح ولا يتسمى القمر فى السماء بنوره فى الماء .

وهنا نجد الفرق بين منهج إقبال ومنهج المتصوفة ، فهم يوغلون فى

المجاز إيغالاً ، تمحى به الحقيقة محوا ، ويهيمنون فى الخيال بحيث يصبح تفسيرهم ضرباً من المحال ، وكان هذا فى الأغلب مؤدياً إلى ركوب الشطط. (٨) وإذا ذهبنا نتبع آيات الذكر الحكيم فى شعر إقبال ، ألفيناه يشير إليها فى مواضع ويورد عبارات فى مواضع أخرى وقد تطول العبارة فيرد جزء من الآية ، كما تقصر فلا يتسع البيت من شعره إلا لكلمة واحدة منها . وفى الأحابن يجتمع القرآن والحديث فى البيت الواحد . وما غرضه من هذا إلا تأييد فكرته بالدليل كل الدليل ، وتأكيد مذهبه الإصلاحى الإسلامى الواقعى بالحقيقة التى لا ينبغى الشك سبيلاً إليها .

وهو حين يخوض فى موضوع أو يدلى برأى ، يستجمع كل ما جاء فى القرآن متعلقاً به ليتزود من آياته ما يقتدر به على بسط القول فى يسر ووضوح معتمداً على كلام الله مصداقاً لما يشرح من معنى ويورد من لفظ فى وقت معاً والأمثلة لهذا من دأبه فى جميع كتبه من الكثرة فى أبعاد الغايات .

وإن شئنا حرصه على الاستشهاد بالآيات لتبلو فى إيراد الآية غير مرة بين الحين والحين . وقد يكون ذلك منه على عمد أو على غير عمد ، أى أنه ربما نسى ما ذكر من قبل فى مقام ، فذكره فى المقام نفسه أو ما يشبهه . كما يورد جزءاً من الآية فى فصل ، وآخر فى سواه ، أما الكيفية التى ضمن بها الآيات شعره فمحكومه بالتعبير والوزن والقافية فشرى الشطر يتسع لآية أو بعض منها ، وشطراً آخر يضيق بتمام الآية ولا يتسع إلا لكلمة منها .

والشواهد التى نستخرجها من كتبه لن تكون إلا قلائد من كثير ، لأن الأشباه ينسى بعضها بعضاً ، وما تماثل أو تكرر يغنى فيه ذكر بعضه عن ذكر كله أو كله يقول إقبال مناجيابه كما ذكرنا سابقاً .

ومأثور عنه أنه يذهب فى اعتراضه بالإنسان إلى أبعد مدى ، مناقضاً فى ذلك الصوفية الذين يغالون فى الغض من شأنه والحط من قدره ، والمناجاة من

أفانينهم الأدبية التي يعبرون فيها عن ذلة الإنسان أمام عزة الرحمن ، ويريدون للماتة تمام المحو والقضاء في ذات الخالق .

وهم يفتنون ما وسعهم أن يفتنوا في وصف الإنسان بالضعيف والعجز ، وإقبال يفصل الذات الإنسانية عن الذات الإلهية ، ويرى أنها تكن قدرا لا سبيل إلى تحديدها . وخير ما يوضح موقفه من الإنسان الذي يعاند به الصوفية ، رأيه في الحلاج ، فعند بعض الباحثين أن المعتزلة والمتكلمين كفروا الحلاج في قوله أنا الحق على توهم أنه متمذهب بمذهب المانوية وهم زنادقة يقولون بالنور والظلمة ، وعبادتهم لله بالعشق وحمده إثم وكفر . وفي عقيدتهم أن نفوسهم جزئيات مشتقة من النور وهو إله الخير ، وتلك النفوس في سجن من أجسادهم .

وهؤلاء وهم زنادقة يعبدون الله بالعشق الجسدي فكأنهم حديد ينجذب إلى المغنطيس ، وتلك الجزئيات من النور منجذبة إلى النور مصدرها الذي صدرت منه . وذهب عن هؤلاء الذين كفروا الحلاج أن فكرته عن العشق الجسدي للمات الإلهية لنفسها . ومحبة الله بالإرادة الإنسانية وهي الإرادة التي تكتمل وترتوي بالمعرفة . (٩)

وفي رأى إقبال أن الحلاج ذهب إلى السمو الإلهي مع وجوده مستقران في قلب المؤمن الذي يظهر قلبه بالرياضيات والمجاهدات . وخلق الله الإنسان ليكون حب الله جليا في الدنيا . ولقد وقع اختيار الله على الإنسان منذ الأزل لأنه خصه بمحبته فما أشبه الإنسان في صورته بالله ، أو كأنه في قوله الحلاج هو هو . ولذلك دافع إقبال عن الحلاج في عملة كتب لاعتزازه مثله بالفرد ذاتية ، وتناول الرأى فيه بالتصويب .

وشاعرنا الإنساني الحق ، أي المؤيد للإنسان الذي خصه الله من نعمه بمالم يخص سواه وفضله على مخلوقاته ، يقف بين يدي ربه مناجياً داعياً معبراً عن محبته وعبوديته ، إلا أنه في مناجاته ، يحمده لربه ماميزه به ، فيشير إلى قوله عز من

قائل في سورة لقمان (ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض
وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) أى أنه جل شأنه سخر الشمس والقمر والنجوم
والأنهار والدواب للإنسان حتى ينتفع بها ، وهذا في التمييز والإيثار غاية .

وأورد جزءاً من قوله تعالى في سورة البقرة (وعلم آدم الأسماء كلها)
والمراد بذلك أن الله أراد الأجناس التي خلقها وميزها له وأوحى إلى قلبه ما يسمو
به النوع الإنساني سموً صورياً ومعنوياً ، فألهمه الأشياء بأسمائها وأمره بسردها
على الملائكة .

وذلك إظهاراً لقدرة الإنسان على القيام بأمر تلك المسميات ، فأيقن
الملائكة أنهم لا قبل لهم بخلافة الله في أرضه .

أما البيت الرابع فتضمن كلمة من قوله تعالى في سورة غافر (وقال ربكم
ادعوني استجب لكم) أى اعبدوني ائبكم .

ومن معاني استجاب الله له قبل دعاءه وقضى حاجته ، وفي شق
الصلور بالسهام كناية جميلة عن مؤاخمة الرب لعباده وتلطف في طلب
المغفرة وقبول المتاب .

ومما يتمسك به إقبال حجة على كرامة الإنسان على ربه وتميزه على
مخلوقاته ما أورده ضمن أبيات يقول فيها :

جه گویم ازمن وازتوش	کنند (إناعرضنا) بی نقابش
فلک را لرزه بسرتن از فرا	زمان وهم مکان اندربراو
نشیمن را دل آدم نهادست	نصیب مشت خاکى او فتادست (١٠)

فهو يريد الذاتية التي طالما ردد لها في كتبه ذكراً طويلاً ، وقال إنها جوهر
الإنسان والصحيح من قيمته والعظيم من نعمته ، فقد حباه الله بها ليقتدر على ما لا
يقتدر عليه غيره من المخلوقات ويجد السبيل ما انقطع سبيل غيره إليه . وسرعان
ما حضره قوله تعالى في سورة الأحزاب :

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن
يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً
جهولاً﴾ (١١)

أما تلك الأمانة فهي الطاعة العظيمة شأنها ، وقد حملها الإنسان على
ضعفه ، إلا أنه لم يراع حقها فكان ظلوماً ، كما كان بعاقبتها جهولاً .

وقيل إن هذه الطاعة إنما تتم بإرادة من الإنسان واختيار ، أي أن
السموات والأرض خفن من الالتزام بطاعة الله لما تفرضه من تبعات ، إلا أن
الإنسان بماله من عقل وروح قبل أن يتحمل تلك التبعة ظلمه وجهله مادام حراً
مخيراً مستحقاً للمثوبة أو العقوبة ، أما موضع الاهتمام هنا من شأنه ، فقدرتة على
التمييز بين خير وشر . وهما جلي من ميزته رفيع من منزلته وذلك كله مترتب عند
إقبال على تلك المنايا التي انفرد بها وزلزلت بهيبتها الشمس والقمر ووسعت
الكون بمارحب ، وإن قرت في القلب ، ثم يقول كالمتعجب إنها منحت لهذا
التراب أي الإنسان ، فبلغ بها من قدره ما بلغ .

وكانما يحملو حملو شعراء الفرس في تكريره وتضمينه لقدر من قوله تعالى

في سورة الأعراف :

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم
على أنفسهم : ألمست بربكم ط قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم
القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ (١٢)

وهذا من باب التمثيل ، أي أنه سبحانه وتعالى أقام الدليل على ربوبيته
ووحدانيته ، وبذلك شهدت عقول بنى آدم ، فكانه أشهدهم على أنفسهم .
وكانهم قالوا بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا ونحن مقرون بوحدانيتك .

درنگر آن حلقه وحدت شكست آل ابراهيم بی ذوق (الست)
صحبتش پاشیده جامش ریزریز آنکه بود از باده جبریل مست

مرد حرافتاد در بند جهات با وطن پیوست و از یزدان گسست (۱۳)
 إنه یضمن کلامه کلمة من تلك الآیة للتذكیر بفحواها وهو الإقرار
 بالإیمان والیقین والتوحید والاستقامة علی جادة المین فقد أخذ الله علی الإنسان
 عهدا بما کرمه وشرفه ، وخصه بما لم یخص به سواه ، فأولی به ثم أولى به أن
 یكون أمیناً علی العهد راعياً لحرمة .

وفی رأى هذه الداعیة المصلحة أن الانتفاع بما جاء فی کتاب الله
 وإصلاح أمر الأولی والآخرة ، إنما یكون بقدره العلم والعمل به .

یرى فی اجتماع المسلمین علی الإیمان أهم مظهر للوحدة بتمام معناها ،
 غیر أنه یأسف جد الأسف لتصدع تلك الوحدة علی أثر غفلتهم عن مضمون
 تلك الآیة التي أورد کلمة منها ، وعدم دخولهم تحت شروط أملتها علیهم
 . ویستعیر من الصوفیة تعبیرهم لیشبه هؤلاء فیما صنعوا بندامی كانت تدور علیهم
 كأس تجمع شملهم فی مجلس أنسهم ، إلا أنهم حطموها ، فاندفق منها شراب
 جبرائیل الذی كانوا یمثلون به ، وهی کنایة عن نشوة العشق الإلهی ما سبق أن أشار
 إلیه المرة تلو الأخری . وهو أن المین جامع المسلمین فی وحدة ، ودينهم لا یفرق
 بینهم فی جنس ولا وطن ، وأرضهم لهم کلهم ، وهم الأحرار إلا أنهم یختارون
 لأنفسهم الوقوع فی الأسر وراء حملود وسلود ، وبذلك قطعوا ما أمر له به أن
 یوصل ، مما أذهب ریحهم وبدد شملهم .

وفی کتاب له آخر ، یورد کلمتین من تلك الآیة فی بیت واحد فیقول :

عیار حسن و خوبی از دل کیست مه او در طواف منزل کیست

(ألست) از خلوت نازی که برخاست (بلی) از پرده سازی که برخاست

چه آتش در دل خاکس بر آفر وخت هزاران پرده یک آواز ما سوخت (۱۴)

وإقبال فی هذه الأبیات یرکن إلى التعبیر الصوفی فی تصدی لوصف قلب

الإلهی ، ویذکر (ألست وبلی) علی المعنی الذی ورد لها فی الشعر الصوفی ،

فشعراء التصوف من الفرس لا يكاد يخلو ديوان لأحدهم من ذكر (يوم ألت) وهم يربطون اليوم الذى فرض الله عليهم فيه العشق الإلهى ، وفى هذا المعنى يقول حافظ الشيرازى من أهل القرن السابع الهجرى (امض يازاهد هنا ، لاتلمنا أن شربنا ، ففى يوم ألت بغير الراح ما اتحفنا) (١٥)

أما (بلى) فيأبى إلا إن يجعلها لجناً خفقت به أوتار المعارف ، وهذا ما يعرف عند الصوفية بالسماع الذى يثير الوجد ويحرك ويهز قلب الصوفى بالعشق . ومن معتاد شعراء التصوف أن يجعلوا من الحسناء والصهباء والغناء وحملة تعبيرية متكاملة . ثم يعجب لنار العشق وهى تتلظى فى الإنسان وهو من تراب ، ولحنه أو كلامه يكشف النقاب عن الحقيقة . ولكن سرعان ما يفيق إقبال من تلك النشوة الحالمة ولا يفوته أن يخالف المغالين منهم فيقول إن قلبه احترق غمافى عزلته ، ويعزم على إقامة وليمة تزدان وتشرف بأعظم ضيف ، وينشر ذاتيته فى الأرض حبة ، ويحتفظ بها لربه عز وجل .

وقد أراد بتلك الآية إيماء إلى الحق ، وتنقل من معنى إلى معنى متظاهراً بتأسيه بالصوفية ، إلى أن صرح بتحمليه لهم وبين كيف أنه يعارضهم فى فصل ذاته عن الذات الإلهية ويعاندهم .

وفى دعوته إلى السير على ما أراد الله لعباده الصالحين ، يذكر الدعاء تبصرة وذكرى ، ويراه لازمة من لوازم الإيمان ويقول ما يدرك منه أن الدعاء موصول بالتوحيد . وعلى ذكر التوحيد نقول إنه منقسم أقساماً : منها التوحيد الإيمانى ويسمى التوحيد الامتثالى والتقليدى وهو توحيد العوام والمقلدين ، والتوحيد الاستدلالى والعقلى وهو علمى تحقيقى وليس إلا توحيد علماء الكلام والحكمة الإلهية . والثالث توحيد الواصلين من الصوفية وهو حالى كشفى ، يشاهلون به الجمال الإلهى . (١٦)

وإقبال يريد توحيد أهل التقوى كما يؤخذ من كلامه الذى يمهد به فى

الدعاء فيورد قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا

دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ (١٧)

والله قريب علما وإجابة وذلك لأنه يتعالى عن القرب مكانا . قيل إن
أعرابيا سأل النبي ﷺ : أقرب ربنا لتناجيه ، أم لناديه ، فنزلت تلك الآية . وشرط
تقبل الله دعاء عبده أن يكون مؤمنا يعمل صالحا . يقول إقبال :

قرب جان با آنکه گفتم (إني قريب) أز حیات جاوداں بردن نصیب

فرد از توحید لاهوتی شود ملت از توحید جبروتی شود

ذره ها از یک نگاهی آفتاب یک نظر شو تا شود حق بی حجاب

یک نگاهی را بچشمی کم مبین از تجلی های توحید است این (١٨)

فالعبد يقترب من الرب بالإيمان الذي ينبنى على التوحيد أساساً ،
والتوحيد هو التقوى التي تسمو بالفرد والشعب فإقبال يربط بين الدعاء والإيمان
والتوحيد والتقوى ، ويرى في هذا التكامل وسيلة الإنسان إلى مافيه خير دنياه
وأخراه ، ولا يفوته أن يوصى الإنسان بالنظر والتفكير ، لأن ذلك يقضي إلى معرفة
الله حق معرفته وتوحيده عن بينة .

وفي كلام يتخيله وراء الأفلاك على لسان صوفي يسمى سيد علي

همداني كان صاحب مشورة أمير كشمير في القرن الرابع عشر ، يقول :

فاش گویم باتوای والا مقام باج راجز بادوکس دادن حرام

یا (أولى الأمر) ی که (منکم) شان است آیه حق حجت برهان اوست

یا جوانمردی جو صرصر تندخیز شهرگیر و خویش باز اندر ستیز (١٩)

ففي هذه الأبيات يستشهد بقوله تعالى في سورة النساء :

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر

منكم﴾ (٢٠)

ومعلوم أن الأمر بطاعة أولى الأمر مشروط بأمرهم بطاعة الله أو رسوله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والمراد بأولى الأمر أمراء المسلمين في عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وبعده ، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاء ، أمر الله بطاعتهم بعد ما أمرهم بالعدل بين الناس .

وطاعتهم واجبة بنص القرآن ماداموا على الحق ، وقيل إن المراد بأولى الأمر علماء الشرع (٢١)

ونحن نرى في ذكر الخراج كناية عن خضوع المحكوم للحاكم ، أما صفات الحاكم التي يشترطها إقبال ، فقد وضحت لنا بتفسير الآية التي أوردها . وهو لا يرتضى حاكماً إلا على تلك الصفات ، أي حاكماً عمر بالإيمان قلبه وطهر ، واستنار عقله فاستطاع يسوس مجتمعاً يستقيم على خير .

لقد ذكر إقبال الملك في مفتتح كلامه ثم انتقل إلى تمييز الحاكم بصفاته التي استمدتها من صريح القرآن ، ثم قال عقب ذلك إن شأن الملك أو الحكم بأمثال هؤلاء الحاكم وله في الكتاب المبين قواطع البراهين .

ويذكر عقب ذلك حاكماً آخر لانجد اختلافاً في الصفات بينه وبين الحاكم الأول ، لأنه شجاع بجاهد في سبيل الله ، وفرضية الجهاد على المسلم أمر معلوم لا يتسع المقام لإعادة القول فيها ، وحسبنا قولنا إن إقبالا مقيد في يده أزمة الحكم بشروط معلومة من كتاب الله .

وفي تقييد بالشعر ، اضطر إلى الفصل بين (وأولى الأمر) و (منكم) ولم يذكر الواو ، وكانت ترجمة ما أورده لأولى الأمر (إمام) إلا أن ذلك لم يغير من المعنى ، كما تحفظ بوضع منكم بين قوسين ، ولم يشر إلى حذف الواو اعتماداً على معرفة القارئ .

وهو يتصدى بالرد على الشبستري من صوفية القرن السابع قال في كتاب منظوم له بعنوان (روضة الأسرار) ما ترجمته (لا تكن لنعمة الله من الجاحدين ، فأنت

لله بنور الله من المشاهدين. وإن كنت الله مرة رأيت ، فرؤيته هنا مرة أخرى
استطعت . واليوم شاهدنا صفته لتستطيع أن تشاهد غلماذاته (٢٢)
ومقطوع به أن الشبستري متكى فى حكمه على ماجاء فى سورة الأعراف
من قوله عز من قائل :

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا كلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ط
قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف
ترانى ﴾ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى
صعقا ﴿ (٢٣)

أما إقبال فهو القائل :

دمادم خویش را اندر کمین باش	گریزان از گمان سوى یقین باش
تب و تاب محبت را فنا نیست	یقین و دیدرا نیز انتها نیست
چنان با ذات حق خلوت گزینی	ترا او بیند تو او را بینى
منور شو بنور (لن ترانى)	مژه برهم مزن تو خود نمانى
بخود محکم گنر اندر حضورش	مشو ناپیما اندر بحر نورش (٢٤)

وهذا من كلامه أحد الدلائل وما أكثرها على دأبه فى الذات الإنسانية ،
فعنده أن الذات إذا بلغت المدى فى كمالها ، أمكن لها الاتصال المباشر بالذات
المحيطة بالكل ، وفى قوله تلميح إلى قوله تعالى فى سورة النجم متعلقاً بما شاهدته
عليه ليلة المعراج :

﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ (٢٥)

أى أن نظرة أثبتته ما رأى صحيح الإثبات ، فما حاذ عن رؤية ما امر برؤيته
من عجائب لا إلف له بها .

ونحن نقع على الفرق جلياً بين الشبستري وإقبال ، فالأول صوفى من
القائلين بفناء الذات الإنسانية تمام الفناء فى الذات الإلهية ، أما الثانى فيخالفه .

وإذا بلغ العشق ذروته تم اللقاء بين الرب والمربوب ، وسعد العاشق برؤية المعشوق وقد جمعتهم خلوة ، إلا أنهما كانا متقابلين كل ذات تقرر في موضعها فلا امتزاج ولا فناء لإحدهما في الأخرى ، إن النور الذى يريد إقبال مستمدا من (لن ترانى) هو ما جاء فى تفسير الآية ، ويرغب إلى من يعى عنه أن يضىء ظلمات نفسه ليعرف خفاياها وبذلك تنصرف رؤيته عن الذات الإلهية إلى ذاته الإنسانية كما انصرفت رؤية موسى عليه السلام إلى الجبل . فالله لم يسأله أن يشاهده على الحقيقة ، كما أنه يريد له أن يشاهد ما امر بمشاهدته وهذا ما كان من شأنه صلواته . وإقبال ينسب فى قوة إلى ضرورة اعتزاز المرء بملاته حتى وهو قريب شديد القرب من الذات الإلهية . وإذا ما أوجب الشبترى على مريله أن يفنى ذاته فى ذات الله قطرة فى بحر ، حذر إقبال من ذلك وحذر .

ونخرج بالموازنة بينهما بأن الشبترى فسّر كلام الله على مناهبه ، أما إقبال فأدرك منه ما أجمع عليه أهل التفسير .

وقد رأينا كيف ألمح مضمون ما جاء فى سورة النجم ، وأورد لفظين من سورة الأعراف فى شطر من بيت .

ويجرى كلاما على لسان المصلح الإسلامى جمال الدين الأفغانى المتوفى عام ١٨٩٨ يستهجن فيه مبادئ الشيوعية ، لأنها تجعل الإنسان صخرى الفؤاد وتسلبه حرية اختيار ما يريد عمله فتعجز ملكاته ويتعطل الفطرى من نزعاته . وكان الظن بالشيوعية أن تخطر على باله أول ما تخطر ، كونها ضلالة يأتى كل من يستقيم له رأى عليها ، أو اشربت نفسه ميلا إلى الأخذ بها عقيدة روحية ، وما ذاك إلا لأنها الدعوة إلى اللادينية ، فهى الكفور الذى يتنزع الإنسان به انتزاعاً من فطرته التى جبل عليها . وكان حسب الشاعر أن يتحدث عن بعض ما تكشف عنه من ختم على القلوب وبث لكل صلة روحية إنسانية بين أفراد

الجماعة ، وكأنما أراد المقايسة بين أثر الإيمان الصحيح والكفر الصريح في حياة المسلمين والكافرين .

ويفضى ذكر قيود الشيوعية ، إلى تذكّر ما ورد متعلقا بالمال في القرآن ، كما يستطرد إلى قريب من ذلك يختص بأصول الشيوعية ، التي يراها مع أصول الإسلام على طرفي نقيض :

هيچ خير از مردك زرکش بحو	(لن تنالوا البر حتى تنفقوا)
ازربا آخرجه می زاید؟ فتن	كس نداند لذت قرض حسن
رزق خود را از زمین بردن رواست	این متاع بنده و ملک خداست
بنده مؤمن امین حق مالک است	غیر حق هر شی که بینی هالک است
و آیت حق از ملوک آید نگون	قریه ها از دخل شان خوار و زبون
آب و نان ماست از یک مانده	دوده آدم (کنفس واحله) (۲۶)

فلما كان الأمر على صلة بالمال ، خطر بباله أهل الحرص ، وجعل شطراً من البيت جزءاً من قوله تعالى في سورة آل عمران :

﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ (۲۷)

فالبر كمال الخير ، وبر الله رحمته ومرضاته ، أي أن عباد الله لن يظفروا برحمة الله ورضاه ما لم يبذلوا المال والنفس في سبيله عز وجل ، وتلك الآية الشريفة تناسب المقام تمام المناسبة ، لأن الشاعر مستشهد بها على أن من لا دين ولا مال له ، لا ينفق مما يحب وبالتالي لا يشمل من ربه رضا ولا رحمة .
ولأن الربا متعلق بالمال ، زجر عن الربا وأشار إلى القرض الحسن الذي ورد ذكره في عملة منها سورة المائدة :

﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ (۲۸)

والقرض الحسن لغة ، ما يكون من مال حلال لا من سفه ولا أذى ، كما أن

المقرض لا يتقاضى عليه ربا ، أما إقراض الله قرضاً حسناً فهو التصديق ابتغاء وجه الله ، والله يجزى على أحسن الجزاء .

وهنا نتبين كيف يطرق إقبال المعنى ويخرج منه إلى المعنوي ، فهو يقبح أكل الربا في المجتمع غير الإسلامي ، ثم يلتفت إلى حقيقة أخرى وهي انعدام الزكاة والإحسان في المجتمع الشيوعي خصوصاً ، وذلك ما يتنافى عن أصول الدين الحنيف والزكاة ركن من أركانه .

ويستهجن مبدأ إلغاء ملكية الفرد للأرض في النظام الشيوعي ، ويبصر بأن الأرض ملك الله الذي يخرج منها الرزق لعباده ، فالإنسان يستمد من أرض الله قوام حياته ، ولا يمتد به العمر بحيث تبقى تلك الأرض في حوزته أبداً ، مما يؤكد على أن ملكيتها ليست إلا لخالقها ، وأراد الشاعر أن يعبر عن استحالة الدوام في الدنيا للإنسان ، فذكر قوله تعالى في سورة القصص :

﴿ كل شيء هالك إلا وجه ﴾ (٢٩)

واكتفى بذكر كلمة واحدة من تلك الآية :

ولما كان في ذكر المالك تذكّر الملوک لأنهم يملكون ، وخطر على باله ماجاء عنهم في القرآن ، ففي سورة النمل :

﴿ قالت إن الملوک إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة

أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ (٣٠)

وهذه الآية خاصة بما وقع لبليس ملكة سبأ مع نبي الله سليمان ، فقد شاورت بلقيس أصحاب مشورتها ، فقالوا إنهم أولو بأس شديد في الحرب ، معلنين تمام أهبتهم لمحاربة قوم سليمان ، إلا أنها لم تقبل هذا العزم منهم وقالت إن الملوک إن انتصروا وغلبوا على قرية استذلوا الأعزة من أهلها وأفسدوها ، وآثرت أن ترسل إليهم هدية كدلالة على مصافاتهم .

فإقبال إنما شاء يستهجن ذلك من دأب الملوک في إظهار سخطه على

من يملك شيئاً أى شىء وليكن تلك الأرض التى يتوهم الشيوعيون إمكان ملكية الإنسان لها ، فانثالت عليه الأفكار من كل جانب ليسفه ذلك الرأى الذى يريد له النقض من أساسه ، وبستعين بما جاء فى الكتاب المبين للرد على من لا يعتقدون أى دين .

والإيماء فى البيت الأخير إلى ما جاء فى مفتاح سورة النساء من قول الحق:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة﴾ (٣١)

وجمهور المفسرين على أن المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام ، أما الإمام محمد عبده فله فيها رآيان ، أولهما أن ظاهر الآية لا يفيد أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم ، سواء آكان هو الأب لجميع البشر أم لا . ويفهم من تنكير ما بث منها ومن زوجها ، أن هذا التنكير لما ولد منهما ، أى أن ما بث منهما كثير من الرجال والنساء ، وبث من هؤلاء سائر الناس .

والرأى الثانى خلو القرآن من نص أصولى قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم ، والمراد بالبشر هنا هماغا الحيوان الناطق البادى البشرية المنتصب القامة الذى يطلق عليه الإنسان .

وعلى هماغا الرأى لا يرد على القرآن ما يقوله بعض الباحثين من أن للبشر علة آباء ترجع إليهم سلائل كل صنف منهم .

ورأى محمد عبده لا يمنع من أن يكون آدم آبا البشر كلهم ، لأنه لم يقل إن القرآن ينفى هذا ، وإنما يقول إنه لا يشبهه إثباتا قطيعا لا يحتمل التأويل .

والمتبارد من لفظ النفس يقطع النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات ، أنها الماهية أو الحقيقة التى كان الإنسان بها ذلك الكائن الممتاز على غيره من الكائنات ، فالمعنى أن الله خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة ، ولا فرق فى هماغا بين أن تكون هذه الحقيقة بدئت بآدم كما عليه أهل الكتاب والمسلمون ، أو بدئت بغيره وانقرضوا كما قاله بعض الشيعة والمتصوفة .

فتلك النفس الواحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناسا ، ويتفق من يدعون إلى خير الناس وبرهم ودفع الأذى عنهم ، على كونها الحقيقة الجامعة لهم ، فالإنسانية مناط الواحدة ، وهي داعية الألفة والتعاطف بين البشر .(٣٢)
وهنا نصادف لقاء في صحة الفهم واتفاقا في تعرف الشيء ببيانه وشواهده بين عظيمين من قادة الفكر الإسلامي ، هما محمد عبده ومحمد إقبال .
وإقبال كرائد للفكر الإسلامي بتمام المعنى أعمى عدو لأصحاب الأهواء الضالة الذين لا يكتفون بأن يجاهروا بضلاتهم بل يبذلون المسعى في سبيل دعوة غيرهم إلى أن ينسلخوا من دينهم ويسيروا في خطى الشيطان مثلهم .
يقول فيما عليه المعول من حال المؤمنين :

اهل حق را رمز توحيد از براست در (أتى الرحمن عبدا) مضمراست
مامسلمانيم واولاد خليل از (أبيكم) غيرا گر خواهي دليل (٣٣)
ففى البيت الأول يضمن الشطر جزء ١ من قوله تعالى فى سورة مريم :
﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا ﴾ (٣٤)
كما يضمن الشطر الثانى من البيت الثانى كلمة من قوله تعالى فى سورة الحج :
﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ (٣٥)

والملة الدين ، وأصل ذلك أن يقال الملة الطريقة السلوكية ، ويرى بعضهم أن ذلك من إملا الكتاب لأن السنة تمل وتكتب ليعمل بها . ويرى آخرون أن ذلك من قولهم طرق ممل ومليل مسلو ك معبد للسير ، والملة توطأ للناس ليسيروا عليها .(٣٦)

ولقد تكرر الأمر باتباع ملة إبراهيم فى عدة سور منها سورة البقرة حيث قال عز من قائل :

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ (٣٧)

و يجب للمسلم أن يتخلق بخلق الله :

مرد حق از کس نگیرد رنگ و بو مرد حق از حق پذیرد رنگ و بو
 هر زمان اندام تپش جانی دگر هر زمان او را چو حق شانی دگر
 رازها بامرد مومن باز گوی شرح رمز (کل یوم) باز گوی (۳۸)

جاء فی سورة الرحمن :

﴿يسئله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن﴾ (۳۹)

ويختص المعنى بأن كل من فى السماوات والأرض إلى الله فقير ويطلب
 الرزق والعون ، والله يغفر الذنوب ويشفى من سقم ويغنى من فقر ويختص
 برحمته العالمين .

وهكذا يقبس إقبال من آى الذكر الحكيم ويضمنها شعره ما وجد إلى
 دعم الدعوى بحجتها ، وكان هذا دأبه فى تأليفه ، فنحن لا ننظر فى صفحة أولا
 نقلب صفحاتين إلا وجدناه مرشدا إلى آية ، أو مستشهبا بما ورد فى آية أو آيتين
 دفعا للشبهات بالبينات ، وللملك كان أحرى عندنا أن نستعمل بالقليل على
 الكثير ، وحسبنا ما وضحنا بالمثل بعد المثال .

يقول الشاعر فى قصيلته (لا اله الا الله) فى بيت رقم ۷

اگر چه بت ہیں جماعت کی آستیوں میں

مجھے ہے حکم اذان لا اله الا الله (۴۰)

ہی أصنام واهم براہا

وہمہ لا اله الا الله (۴۱)

وهذه الآية ماخوذة من سورة الزمر :

﴿ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو ءفأنتى تصرفون﴾ (۴۲)

يقول الشاعر فى قصيلته ذكر وفكر (الذكر والفكر) فى بيت رقم : ۱

یہ ہیں سب ایک ہی سالک کی جستجو کے مقام
 وہ جس کی شان میں آیا ہے علم لآسماء (۴۳)
 ذان لسالک الطمّوح مقام
 نزلت فیہ (علم السماء) (۴۴)

وهذه الآية مأخوذة من سورة البقرة:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ
 أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (۴۵)

يقول الشاعر في قصيدته توحيد (التوحيد) في بيت رقم: ۳

میں نے اے میرے سپہ دیکھی ہے
 قل هو الله کی شمشیر سے خالی ہیں نیام (۴۶)
 قائد الجیش قد رأيت غموداً
 من (هو الله) ما بهما من حسام (۴۷)

وهذه الآية مأخوذة من سورة الإخلاص: ﴿قل هو الله﴾ (۴۸)

يقول الشاعر في قصيدته تصوف (التصوف) في بيت رقم: ۴

خرد نے کہہ بھی دیا لالہ تو کیا حاصل
 دل و نگاہ مسلمان نہیں تو کچھ بھی نہیں (۴۹)

لا إله إلا الله محمد رسول الله

يقول الشاعر في قصيدته شكست (هزيمة) في بيت رقم: ۱

مجاہدانہ حرارت نہ رہی صوفی میں
 بہانہ بے عملی کا بنی شراب است (۵۰)
 خلاص صوفی من حرق و کد
 شراب (الست) معذرة البطالة (۵۱)

وهذه الآية ماخوذة من سورة الأعراف:

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ءألمت بربكم﴾ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غفلين ﴿ (٥٢)

يقول الشاعر في قصيدته محمد علي باب (محمد علي الباب) في بيت رقم ١:

تھی خوب حضور علماء باب کی تقریر
بیچارہ غلط پڑھتا تھا اعراب سموت (٥٣)
أجاب (الباب) في حفل مضيضاً في مقالات
وفات الشيخ توفيق بإعراب (السموت) (٥٤)

ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى: الباب، فقرأ من القرآن فلحن في اعراب السموات فضحك الحاضرون، فقال: إن بشري إمامتي تحرير الآيات من الإعراب.

يقول الشاعر في قصيدته لاهور و كراچی (لاهور و كراچی) في بيت رقم ٣:

آه ! اے مردی مسلمان تجھے کیا یاد نہیں
حرف لاتدع مع الله إلهها آخر (٥٥)
آه للمسلم غفلاً نسيماً مادری
سر ﴿لاتدع مع الله إلهها آخر﴾ (٥٦)
وهذه الآية ماخوذة من سورة الشعراء:

﴿فلاتدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعدّيين﴾ (٥٧)

يقول الشاعر في قصيدته خافانی (الخافانی) في بيت رقم ٣:

خاموش ہے عالم معانی
کہتا نہیں حرف لمن ترائی (٥٨)

يجتار بعالم المعاني

لا يسمع قول : ﴿لن ترانى﴾ (٥٩)

وهذه الآية مأخوذة من سورة الأعراف :

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا ربّه قال ربّ أرنى أنظر إليك قال لن

ترانى ولكن انظر ...﴾ (٦٠)

بعد هذا البحث الطويل وصلت إلى نتيجة أنّ اقبالاً يحرص في إدخال الآيات القرآنية في شعره مستشهداً على موقفه الإسلامى الإصلاحى بتفكيره الجديد فى الفكر الدينى العملى وتفسير الآيات بالمأثور المستقيم فى الفهم ولا يميل إلى تاويل ولا تمثيل لأنه ما كان صاحب فرقة دينية ولا شيخاً لطريقة خاصة لبيحث لها عما يؤيدها من براهين فى القرآن . بل كان ذلك الموقن الذى فهم القرآن على ما ينبغى أن يفهم ، فما حرف معنى من معانيه عن أصله ، ولذلك رأى أن تكون الهداية به ، واستلزم قيام الدعوة الإصلاحية فى الإسلام على أساس منه . وكان على المتخير فى إلباء رأيه وهو من هو فى سعة الإحاطة علماً بالمذاهب الفلسفية والاتجاهات الروحية فى الشرق والغرب وفى الغابر والحاضر . وتلك النوعية لثقافته التى تكاملت مقوماتها ، كانت على الأرجح عملة السبب فى قدرته على التمييز بين الآراء والمذاهب ، لاختيار الأفضل الأمثل ، إلا أنه لم يستعر نفسه مذهباً لسواء ، بل فاضل بين وجهات النظر إلى أن تأتى له أن يكون من فادة الفكر الإسلامى ، وأصبحت له الريادة على نحو خاص به ، فلفت إلى كيف يصلح أمر المسلمين بالمين ، وجعل هذا جوهر دعوته . ولما كانت أحكامه فى الكتاب لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، لم يذهب القرآن عن خاطره فى كل مافاضت به قريحته نثراً أو شعراً .

ونحن وإن كنا لاندعى الاطلاع على كل ما نظم الفرس والترک من شعر

يتصل بالقرآن ، لانبأ أن شاعراً فارسياً أو تركياً كان أكثر التفاتاً إلى القرآن

وأشد حرصاً على الاستشهاد بآياته من إقبال ، مما خلع على تأليفه المنظومة طابعاً قرآنياً على حدة ، وجعل دراستها دراسة للقرآن ضمناً ولا ريب .

إنه لم يحد حد وشعراء الفرس والترک في نظم قصة قرآنية حملها معظمهم على غير ماتحمل عليه وطوعوها لخاص من أغراضهم ، ولكنه اكتفى بالإشارة إلى القصص القرآني لاستخراج العبرة والتمثيل بالحقيقة التي لا مريبة فيها . والحق أن هذا هو غرض القرآن من الإتيان بما فيه من قصص ، فما احتوى الكتاب إلا الحق ولا تحدث إلا عن الواقع بحدافيره . وبذلك نلرك الجديدة لدى إقبال والواقعية ، وبهما للدعاة الإصلاح أذن تصغي وعقل يعي .

وعرفنا من بعض شعراء الفارسية والترکية من أفسحوا مواضع للآيات في مدائحهم ، وقلنا إن كلامهم يسوء وقعاً في النفوس المؤمنة ولا يصح في العقول المفكرة وكان جرأة على كلام الله ليس لهما في الذوق مساغ ، وإقحاما له فيما ينبغي أن يكون بنجوة عنه .

ولكن إقبالاً على منهج ، لأنه يبصر ويذكر بقيم ومثل إسلامية يريد للمسلمين الأخذ بها في مختلف شئونهم من اجتماعية وسياسية وغيرها ، وقد تتبع في القرآن أصولها ، فأورد هذه الأصول آيات أو إشارات إليها في معارض كلامه . وأورد أن يدعم بها وجهة نظره ويستشهد على صحة دعواه ، ولم يتناول الآيات بالتفسير على ما يفهم من معنى التفسير ، بل إن إشارته إلى الآية في الأحابن قد تستوجب من قارئه أن يبحث طويلاً في التفاسير ، ونضرب لذلك مثلاً ما أدرجه تحت عنوان تفسير سورة الأخلص في كتابه (الأسرار والرموز) فقد اتخذ من آيات السورة عناوين للخوض في أغراض خاصة تعلق بالمربوب لا بالرب ، وكأنما شاء أن تكون الآية مذكرة بحقيقة خاصة لا ينبغي لها أن تنسى . ومثال ذلك قوله :

من له الأسلاف والأرض ادعى (لم يلد) ينسى و (لم يولد) معا

فمثل هذا يبين في دلالة على ما قصد إلى التمثيل له والإشارة إليه .

ولا يختلف عاقلان في أنه أراد التنبيه على تناسي المسلمين أنابهم وأوطانهم
ليصبحوا بنعمة الدين إخوانا. وحاشا له أن يريد تشبيهم بمن يتعالى عما يصفون .



الهوامش

- (١) إقبال والقرآن لدكتور حسين مجيب مصرى
 (٢) ارمغان حجاز ، كلييات : ٩٦٣
 (٣) جاويد نامه ، ص : ٥٩٦ ، كلييات
 (٤) لقمان : ٢٠ (٥) البقرة : ٣١
 (٦) غافر : ٦٠ (٧) مالك لمحمد أبوزهرة ص : ٣٥
 (٨) إقبال بين المصلحين الإسلاميين، الدكتور حسين مجيب المصرى، ص : ٢٦٠
 (٩) Massigonon : La passion D' Al-Hallaj p:161-162
 (١٠) گلشن راز جميد ، ص : ٥٥٤ كلييات
 (١١) الأحزاب : ٧٢ (١٢) الأعراف : ١٧٢
 (١٣) جاويد نامه ، ص : ٦٧٩ ، كلييات
 (١٤) گلشن راز جميد ، ص : ٥٦٦ ، كلييات
 (١٥) ديوان حافظ شيرازى ، حافظ ، ص : ٢١
 (١٦) د/حسين مجيب المصرى : فى السماء ، ص : ٢٩٩
 (١٧) البقرة : ١٨٦ (١٨) جاويد نامه ، ص : ٧٨٠ ، ٧٨١ ، كلييات
 (١٩) جاويد نامه ، ص : ٧٥٢ ، كلييات
 (٢٠) النساء : ٥٩ (٢١) البيضاوى : تفسير البيضاوى ، ص : ١١٥
 (٢٢) محمود شبستري : گلشن راز ، ص : ١٩ و ٩٠ .
 (٢٣) الأعراف : ١٤٣ (٢٤) گلشن راز جميد ، ص : ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، كلييات
 (٢٥) النجم : ١٧ (٢٦) جاويد نامه ، ص : ٦٦٨ ، ٦٦٨ ، كلييات

- (٢٧) آل عمران : ٩٢ (٢٨) المائدة : ١٢ (٢٩) القصص : ٨٨
 (٣٠) النمل : ٣٤ (٣١) النساء : ١
 (٣٢) محمد عبده : تفسير القرآن الحكيم ، ص : ٣٢٦-٣٢٧
 (٣٣) اسرار ورموز ، ص : ٩١ ، ٥٢ كلييات
 (٣٤) مريم : ٩٣ (٣٥) الحج : ٧٨
 (٣٦) ابراهيم حمروش : معجم ألفاظ القرآن ٢ / ٦٥٥
 (٣٧) البقرة : ١٣٠ (٣٨) جاويد نامه ، ص : ٦٦٥ ، كلييات
 (٣٩) الرحمن : ٢٩ (٤٠) ضرب كلم : ٥٩٦ ، كلييات إقبال
 (٤١) ديوان إقبال ، لسيد عبد الماجد الغوري : ٢٣
 (٤٢) الزمر : ٦ (٤٣) ضرب كلم : ٦٠٩ ، كلييات إقبال
 (٤٤) ديوان محمد إقبال ، ص : ٢٨
 (٤٥) البقرة : ٣١ (٤٦) ضرب كلم : ٦١٢ ، كلييات إقبال
 (٤٧) ديوان إقبال ، ص : ٢٩
 (٤٨) الإخلاص : ١ (٤٩) ضرب كلم : ٦٢٤ ، كلييات إقبال
 (٥٠) ضرب كلم : ٦٣٠ ، كلييات إقبال
 (٥١) ديوان محمد إقبال ، ص : ٣٩
 (٥٢) الأعراف : ١٧٢ (٥٣) ضرب كلم : ٦٣٩ ، كلييات إقبال
 (٥٤) ديوان محمد إقبال ، ص : ٤٤
 (٥٥) ضرب كلم : ٦٥٣ ، كلييات إقبال
 (٥٦) ديوان إقبال ، ص : ٥٠ (٥٧) الشعراء : ٢١٣
 (٥٨) ضرب كلم : ٧٣٩ ، كلييات إقبال
 (٥٩) ديوان إقبال ، ص : ٩٧ (٦٠) الأعراف : ١٤٣

المصادر والمراجع

- (١) ارمغان حجاز ، علامه محمد إقبال ، إقبال اكيڈمي لاهور
- (٢) اسرار ورموز ، علامه محمد إقبال ، إقبال اكيڈمي لاهور
- (٣) إقبال بين المصلحين الإسلاميين ، الدكتور حسين مجيب المصري ، مكتبة الأنجلو المصرية
- (٤) إقبال والقرآن ، لدكتور حسين مجيب مصري ، القاهرة ، ١٩٧٩ م
- (٥) تفسير البيضاوي ، البيضاوي ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ، الطبعة الجديدة ١٦ ١٤١٤ هـ
- (٦) تفسير القرآن الحكيم ، محمد عبده ، القاهرة ١٣٢٥ هـ
- (٧) جاويد نامه ، علامه محمد إقبال ، إقبال اكيڈمي لاهور
- (٨) ديوان حافظ شيرازي ، الحافظ ، بولاق ، ١٢٨١ هـ
- (٩) ديوان إقبال ، لسيد عبدالماجد الغوري ، دار ابن كثير دمشق بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧ م
- (١٠) ضرب كلیم ، علامه محمد إقبال ، إقبال اكيڈمي لاهور
- (١١) في السماء ، د/حسين مجيب المصري ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م
- (١٢) گلشن راز ، محمود شبستري ، طهران
- (١٣) معجم ألفاظ القرآن ، ابراهيم حمدوش ، القاهرة ، ١٩٧٠ م
- (١٤) La passion D' Al-Hallaj By Massigonon (Paris 1922)

